تحليل سيميائي لرواية "جلنار" للروائي:

زوكراء أو ماريا

الطالبة الباحثة: سلامي فاطنة

تحت إشراف: الأستاذ الدكتور: عبد الكريم لشهب

المغرب

أخذت السيميائيات السردية حصة مهمة من اهتمام الدارسين للأدب في الآونة الأخيرة، فتشكلت مدرسة بأكملها عرفت بمدرسة باريس السيميائية، نجد على رأسها السيميائي المرموق في السرد "ألجرداس كريماص"، الذي طور أبحاث "فلاديمير بروب"، التي تعنى بدراسة الدلالة الموجودة في النص، فأصبح اسم كريماص مرتبطا أشد الارتباط بالسيميائيات السردية، وبهذه المدرسة على وجه الخصوص، فصار على دربه ثلة من أتباعه أمثال "جوزيف كورتيس" و"جاك فونتاني".

اهتم كريماص بالشروط الداخلية للمعنى في النص، لأن التحليل في نظره يجب أن يكون محايثا، حيث يقتصر على الاشتغال النصي لعناصر المعنى، دون اعتبار العلاقة التي يقيمها النص مع أي عنصر خارجي، مما يستوجب التعرف أولا على الوحدات المشكلة للنص باعتباره نسقا وبنية، وبهذا قسم كريماص النص إلى مستويين:

"مستوى سطحي" و"مستوى عميق"، بحيث يتدرج المعنى من العمق في اتجاه السطح، إلى أن يتجلى في شكل خطابي محدد، كما أن المستويات تتفاعل فيما بينها عكس ما قد تتوهم أنها منفصلة عن بعضها البعض.

مجملا يمكن القول بأن المعنى يمر من المراحل الآتية:

العمق: ويضم الوحدات المعنوية الصغيرة والتركيب الأساس وهو ما سيهمنا بالدرجة الأولى في تحليل رواية "جلنار"، والذي يضم الدلالة السردية، (البرامج السردية والخطاطة السردية والجهات).

ثم مستوى السطح: الذي يتضمن التركيب الخطابي.

من هنا يستدعي منا هذا طرح الاستفسار التالي: أين تتجلى السردية في رواية "جلنار" لزكرياء أبوا مارية؟

أولا وقبل الكشف عن التمظهرات السردية في رواية "جلنار"، لا بد من إعطاء نبذة عامة عن الرواية، إذ أنها تحاول رصد حياة طبيبة نفسانية، من خلال تتبعها مغامرة علاج مريض نفساني، كان يرتاد عيادتها وكان شاعرا معروفا، بدأت الرواية بتوظيفها لتقنية الاسترجاع "الفلاش باك"، فانطلقت من حذت الانفجار الذي دوي في مطعم كان يدعى "لاكاساديسبانيا"، بالدار البيضاء، كان يجمع الطبيبة والشاعر خلال وجبة عشاء، ليودي بحياته وتبقى م ورائه وحيدة حزينة، فتأخذ بعد ذلك على كاهلها التعريف بقضيته، عبر شتى الوسائل(الصحافة، القضاء...)، اتخذت جميع الوسائل لاسترداد حق الشاعر الضائع سدا، والانتقام لدمه المهدور ظلما، هذا الأخير الذي وصل حبه لها درجة الجنون، فما أن كادت تحقق مرادها في الوصول إلى قلبه والنيل به زوجا لها، حتى شاءت الأقدار أن يودي به حادث انفجار إرهابي إلى الموت، وقع هذا بعد انتصار الطبيبة على معاناة الشاعر النفسانية، وكذا استئصال المرأة التي كان يحبها سابقا والتي كانت تدعى "فاتحة" من ذاكرته، وكسب قلبه ولو نسبيا.

لقد جرت الأحداث في مجموعة من الأمكنة والفضاءات (الفيلا، المطعم، المؤسسة الجامعية، المستشفى، آسفي، الدار البيضاء...)، إلا أن معظم مجريات الرواية دارت تفاصيلها في عيادة الطبيبة شامة، على اعتبار أنها كانت تمثل بالنسبة للشاعر ملاذا آمنا يفرغ فيه ما يثقل ذهنه وكاهله، أما الزمن فكان واحدا يمتح من الماضي، على اعتبار أن شامة كانت تحكي أحداثا وقعت لها في الماضي.

لكن هذا الزمن الماضي تخللته أزمنة لعبت دورا في بناء الأحداث ونمائها، متمثلة في الليل الذي أودى بحياة الشاعر من داخل مطعم، هذا الليل الذي يحمل من الدلالات في الثقافة ما يجعله يقترن بالظلام والظلم والسرية والخفاء والسكون والوحشة، وهو ما يؤكده موت الشاعر، الذي كان ظلما والذي خلف وحشة لدى الطبيبة شامة.

إذ أن الشاعر ذهب على حين غفلة، في سرية تامة لم يعرف له خبر، وهو ما يؤكده قولها في آخر الرواية:" آه لو تنجلي فقط غشاوة الشك والحيرة عنهم، لو يلقن نظرة متأملة على ما تجرأ ليسرقه عماهم، ليدركوا حجم خسارتهم". ص89.

والجدير بالذكر أن هذه الرواية تتضمن برنامجا سرديا أساسا، بالإضافة إلى مجموعة من البرامج السردية الثانوية، إذا ما اعتبرنا أن كل شخصية برنامجا سرديا، فأما البرنامج الأساس فتمثل الذات فيه شامة الطبيبة، باعتبارها الشخصية المحورية، التي تتنامى عبر السرد قصة حياتها، فمنذ الوهلة الأولى، يظهر لنا السارد أن الذات شامة، هي الشخصية المحورية التي تصر على الوصول إلى هدفها، والمتمثل في علاج الشاعر أولا، ثم محو فاتحة من ذاكرته، وكسب حبه ثانيا، وهو ما يؤكده قولها:"كان الشاعر معركتي" ص

22، وقولها: "إلا إذا تمكنت من استئصال "فاء" تحديدا من رأسه" ص 23

وقولها كذلك في الصفحة 25 من الرواية: " أن أتجرأ لأورطه معي في عالمي أنا أيضا، ولكن دون أن أوظف مثلها الموت في احتلالي".

أما الموضوع الذي تسعى إليه الذات هنا "شامة"، هو الشاعر وعلاجه وكسب حبه، لكن ليس قبل أن تمحو فاتحة من ذاكرته، التي كانت تراوده حتى في كوابيسه: "ثم أقفز من كابوسي وأنا أتخيلها، وطنا تزفه الخيانة للمذبح ... ومع أول نفس أصعده تقفز فجأة في ذهني ككل مرة أول يوم تعرفت فيه إلى فاتحة..."ص36.

إلا أنه لوصول الذات إلى الموضوع القيمي، استعانت ببرنامج سردي للاستعمال، والذي تتحدد وظيفته في إنجاز الفعل (علاج وكسب حب الشاعر)، وقد يتخذ شكل إنسان أو حيوان أو شيء من الأشياء، وفي الرواية التي بين أيدينا نلاحظ أن ذات "شامة"، أثناء البحث عن موضوع القيمة "الشاعر"، كانت تستعين بمسوداته الخاصة لكشف خبايا نفسه، ولغز حياته، هذه المسودات التي حاولت نشرها بعد رحيله الدنيا، فتمكنت من نشرها على شكل رواية بعد إصرارها على ذلك، "لن يجعلني أتخلى عن إيماني بمسودة الشاعر كقاموس ، وضعته في آخر مطافه الكتابي سلطته النثرية الوحيدة، ليرى المتأملون من خلالها ما يأبى أن تعكسه المرايا والظلال" ص18 .

فعبر المسودات كانت تصل شيئا فشيئا إلى عمق الشاعر، "كانت المسودات نشيطة وأشبه بلعبة أسس قاعدتها الشاعر على أساس المراوحة بين تاريخين...، نحو التاريخ الشخصي للشاعر تارة، ونحو تاريخ النضال الفلسطيني تارة أخرى"ص13.

والغريب في الأمر كذلك، أن الطبيبة قد وظفت الكرسي للوصول إلى هدفها: "إن ذلك كان أداة فقط أردت أن أحتل بفضلها ذكرياته وتفكيره، أو على الأقل أن لا يتم تأثيثها من طرف الشاعر بمعزل عن تواجدي الفعلي" ص46 .

فهي لدى تحريكه أحدث صوتا تريد القول من خلاله للشاعر أن لا يسرح لوحده، بل هي كذلك تشكل جزءا من تفكيره. وبذلك أصبح الكرسي، هنا فاعلا داخل الرواية.

كما أن دواوين الشاعر وأشعاره كانت مساعدا لها، للوصول إلى علاج لحالته، "كنت الأقرب إلى الشاعر عبر دواوينه وأشعاره، وبذلك كنت الأجدر بين كل العارفين بالتحليل النفسي باحتضان حالته" ص48.

لم تكن شامة في رحلتها للوصول إلى ذات الشاعر، لتجد طريقها خاليا من المصاعب والعراقيل، وقد اتخذت العوامل المعيقة أشكالا متعددة في هذه الرواية، إذ أن هناك معيقات جاءت من طرف شامة ذاتها، والأولى من طرف الشاعر.

فالأولى تمثلت في ظهور زوج شامة السابق، "علال"، الذي شكل برنامجا سرديا ثانويا، وكذا معيقا للبرنامج السردي الأساس، حيث إنه كان يريد الاتصال بزوجته الطبيبة مجددا، بذريعة أن مفاتنها كانت من حقه هو وحده، ولا ينبغي عرضها للعموم، إن أنه كان يتهدد تجربتها مع اللباس القصير كثورة عفوية ضد كل الاختناق الذي ضل يفرضه عليها طيلة فترة زواجهما.

أما من جانب الشاعر شكلت فاتحة حبه الأول، معيقا لصول الطبيبة إليه، على اعتبار أنه لم يستطع نسيانها حتى بعد مماتها، " تمدد كزئبق ثقيل عندما عبرت فاتحة باب الشرفة، لتشتعل الزغاريد خلفها كجهنم، وطنا مذبوحا ومسلوخا تزفه الخيانة للجحيم" ص37.

هذا من جهة ومن جهة، ومن جهة ثانية شكل عصيان الشاعر عن الإفصاح عن الإفصاح أمام الطبيبة بكل ما يختلج صدره معيقا في البداية:" عصيان الشاعر وتردده بأن يمدني بسيرته، لم يساعدني أيضا، وقد اكتفيت لفترة طويلة بدواوينه" ص57 .

هذا بالإضافة إلى سفره بعيدا عن الطبيبة لمدة طويلة، جعلتها تترك عملها وتذهب باحثة عنه، وتجده مريضا بالمستشفى بمدينة آسفي، على إثر حادثة سير، لا يقدر حتى على الكلام.

ولعل أبرز معيق لشامة في الوصول إلى الفوز قلب الشاعر، هو موته في اللحظات التي كانت سوف تحقق ذلك

هذا بالإضافة إلى مجموعة من البرامج السردية الثانوية، التي تخللت الرواية، منها: برنامج فاتحة وأمها التي شكلت معيقا للشاعر في الوصول إلى فاتحة، والتي طلبت منها الزواج بمدير المخبر السويسري الذي كانت تشتغل به، والذي هو الآخر شكل معيقا للشاعر في الظفر بفاتحة.

إذا فالشاعر كان في حالة صراع مع والدة فاتحة، والتي مثلت بالنسبة إليه هو والسويسري رمزان للجحيم والخيانة.

وكذا برنامج "يامنة" مساعدة الشاعر في أشغال البيت، إذ هي من تبقى له من رائحة والديه، كانت أمه عادة ما توصيه بها خيرا إن ذهبت وتركتها معه، هاته المساعدة التي كان يعي الشاعر عنها أكثر مما كانت تعي هي عن نفسها: "كنت أعلم عن يامنة أكثر ما كانت تعي عن نفسها، حتى أصبح باستطاعتي أن أتوقع حركاتها، ونوع ردود أفعالها" ص72.

ثم برنامج والد الشاعر الذي سقط على يد الاحتلال، إبان المقاومة:" بعد سقوط والدي برصاص المستعمر إبان مراحل المقاومة أصيبت يامنة بصدمة كادت تذهب بحياتها..." ص73.

وما إن تأكدت في الأخير ذات الطبيبة شامة، أنها اتصلت بموضوعها القيمي "الشاعر"، وذلك بإزاحة تلك الغمامة السوداء التي كانت تلفه، حتى حدث ما لم يكن في الحسبان، (انفجار بالمطعم أودى بحياته)، وهو ما يكنى في عالم السيميائيات السردية ب"الفجوة" أو الصدمة: وهو حدوث شيء يغير مجرى الأحداث، لم يكن مبرمجا له من قبل، فحدث على إثره انفصال للذات من جديد مع موضوعها القيمي، ونمثل لهذه التحولات على مستوى الرواية بالخطاطة التالية:

1ذ 1ذ

وتجدر الإشارة أنه في الرواية حدثت مجموعة من الانفصالات والاتصالات بأمكنة وأزمنة مختلفة، كانفصال الشاعر والطبيبة عن المستشفى واتصالهما بفيلا الطبيبة ثم المطعم، ثم انفصال الطبيبة عن الدار البيضاء مكان عملها، واتصالها بمدينة آسفي، بحثا عن الشاعر، ثم على مستوى الزمان انفصال عن الصباح واتصال بالمساء. هذا على مستوى البرامج السردية.

أما بانتقالنا إلى مستوى الخطاطة السردية، فنجدها تتشكل من مجموعة من العناصر المنظمة لها، والمتمثلة في: التسخير، التأهيل، الإنجاز ثم الجزاء.

فعلى مستوى التسخير: أو التطويع أو التحريك، فهي كلها مسميات لمدلول واحد، تفترض أولا امتلاك الرغبة في إنجاز الفعل، أي الدفع بالذات للقيام بالفعل، من هنا فالذي دفع بالطبيبة شامة إلى القيام بفعل علاج الشاعر وجذبه نحوها، هو ذاتها هي نفسها، فالتسخير هنا ذاتي، أما في برنامج يامنة فالذي سخر أو دفع الشاعر لإبقاء يامنة معه، هو والداه اللذان أوصياه بالإبقاء عليها معه.

أما على مستوى التأهيل: الذي يجب أن تمتلكه الذات لتؤدي الفعل، من إرادة ومعرفة وقدرة على الإنجاز، فنجد أن الطبيبة ذات الفعل حشدت كل قواها العقلية والنفسية والجسدية للظفر بموضوعها القيمي، وما يؤكد أن لديها من المعارف ما يمكنها من ذلك هو قولها: " أثمرت خطتي وعلاجي، عودته الحميدة" ص 84 ، وهدا ما يعني أنها كانت تسير على خطة محكمة وليس خبطا عشواء، فقدرتها على الصبر لتحقيق مرادها، وكذا معرفتها الواسعة بطب النفس، إلى درجة أنها كانت تحرص على استقامة لغتها وسلامتها، كي لا تؤدي به إلى الابتعاد عن بر الأمان، إذ أنها تقول: "كنت مستعدة أن أتدخل لحظة لأحفز الحكاية في تداعيه، لأخرج الأيام والأمكنة والناس...لأجعله يتوسع في التفاصيل وفي إفشائه للمتخفي بين الأسطر..." ص40. فالذات أهل للإنجاز في هذه الرواية.

والإنجاز: يشكل المرحلة الثالثة داخل الخطاطة السردية، حيث أبانت من خلاله ذات شامة على قدرتها على إخراج الشاعر من الحالة النفسية المتأزمة التي كان يعيشها، بمقتضى البرنامج السردي المساعد والمتمثل بالأساس في مسوداته.

أما آخر مرحلة فهي الجزاء: فحسب الرواية الجزاء كان من طرف أولئك الإرهابيين الذين فجروا المطعم وأخذوا منها حياتها، فكان أن أجازوها على قدرتها إخراجه من أزمته بأن أخذوه منها، قبل أن تحدث المصالحة مصالحة والشاعر كان من المتمسكين بقضية استرجاع المدن والجزر المغتصبة من لذن إسبانيا (سبتة ومليلية، وجزيرة ليلى...).ان ما يميز

بنأءا على مراحل التحليل كلها يمكننا القول، أن ما يميز النص السردي عن غيره من النصوص الشعرية أو غيرها هو بنيته السردية هاته بغض النظر عن معناه أو شعريته، كما يمكننا القول أن رواية "جلنار" هاته قد تحققت فيها هذه البنية، مما جعلها تصنف من النصوص السردية التي فازت بجائزة الشارقة.